

إسهامات الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله في الدراسات المصطلحية

(قيمته المصطلحية)، فيصف حضور المصطلح الأصولي في الكتاب قلة أو كثرة، وطريقة المؤلف في التعامل معه من حيث التعريف أو عدم ذلك، وإذا كان التعريف فكيف هو على العموم والإجمال. قال رحمه الله مستخلصا العبرة من هذه المرحلة: "فكان من فضل ذلك علي أن تنبتهت إلى شيء هام جدا بالنسبة إلي ساعتها وهو وجود شيء اسمه (المصطلح)؛ وإنه أمر - رغم بدايته - لعزيم! فكم من نكتة لا ينتبه المرء إليها في وقتها وإبانها - ربما لبدايتها - وهي مفتاح خير وأي خير «وكأي من آية في السماوات والأرض يمرن عليها وهم عنها معرضون» (يوسف: 105).

المرحلة الثانية: بداية معايشة

الشاطبي في موافقاته:

بعد تلك البداية الموافقة، التي حركت فيه رحمه الله الإحساس بأهمية الدراسة المصطلحية وخطورتها، اقتحم بحر موافقات ليعارك أمواجه ولججه، وذلك من خلال بحث أولي للسنة الثانية من تكوين المكونين (1986م - 1987م) تحت عنوان: (مصطلحات أصولية في كتاب الموافقات للشاطبي: مادة قصد نموذجاً) وهذا ما أتاح له رحمه الله الاقتراب والاندماج في الدراسة المصطلحية عملياً من خلال التطبيقات التي أثمرت لديه حظاً من التصور حول قضايا المصطلح، وورثت لديه المزيد من الانفتاح على عالم المصطلحية.

المرحلة الثالثة: مرحلة تطبيق المنهج

الوصفي:

خاض رحمه الله تجربة ثالثة في الموضوع ذاته، ولكن بشيء من التوسع، وهي خطوة أكثر جرأة ورسوخاً، حيث عمد إلى تطبيق المنهج الوصفي كما وضعه أستاذه المشرف، فبناه -البحث- بالأحجار واللبنات التي هندسها المشرف وطبقها في بحثه الرائد (مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ) ولذلك جاء بحث الفقييد الأنصاري على وزن (مصطلحات نقدية وبلاغية)، وليس له من الإضافة إلا ما ضمنه في مقدمة البحث من خلاصات حول منهج التطبيق وقد نوه بها الأستاذ المشرف أيما تنويه واعتبرها إضافة نوعية.

وعموماً فإن مؤلف (مصطلحات أصولية في كتاب موافقات للشاطبي)، أمده رحمه الله بتجربة غنية في مجال الاحتكاك بالمصطلحات، وإحصائها بكل صيغها الصرفية وضمائمها الوصفية والإضافية وما إلى ذلك من أصدقاء ومرادفات... ثم توفرت لديه ثروة مهمة من التعريفات التي استخلصها بناءً على الدراسة الوصفية المتسمة بالشمولية والتكاملية. وهذا ما أغنى رصيده المصطلحي، وجعله رحمه الله يتحرك فوق أرضية صلبة تمكنه من حل كل الإشكالات



د. حسن قايدة

إن الحديث عن إسهامات هذا الرجل العظيم الفريد من الصعوبات بمكان، ذلك أولاً لكثرتها وتنوعها وتوابعها، فمؤلفاته رحمه الله أشبه ما تكون بحديقة غناء مفعمة بالأزهار والرياحين والفواكه المتشابهة وغير المتشابهة. وثانياً أن الكثير منها لم يجمع إلى حد الآن وينشر كما هو حال العديد من إسهاماته في الندوات العلمية، والمناقشات الجامعية وما إلى ذلك.

لقد ألف رحمه الله في صلب العلم وفي ملحه و حذر من أغاليطه، جمع بين العلوم الشرعية، والفنون الأدبية، وعلوم التربية، وفقه الدعوة، وفنون الخطابة والوعظ والإرشاد...

أما بخصوص الدراسات المصطلحية، فإنه طرق بابها منذ أن تفتقت قريحته على البحث والدراسة الجامعية، فهو عندما ولي وجهته للعلوم الشرعية دخلها من باب المصطلح، واختار من تلك العلوم علم أصول الفقه، فبدأ هم هذه الدراسة يكبر معه رويداً رويداً، شيئاً فشيئاً، حتى وصل إلى مرتبة النضج والرسوخ، بل صار فحلاً من فحول علم أصول الفقه، ومنظراً متفرداً في الدراسات المصطلحية، فتحققت فيه عبارة شيخه الدكتور الشهيد البوشيخي حفظه الله، الذي طالما أسمع طلبته مقولة: "من عاشر الفحول تفحل ولا غرابة في ذلك في كون المرحوم عاشر اثنين من فحول العلم عشرة طويلة: الأول: من الأموات وهو: الشاطبي رحمه الله، والثاني: من الأئمة وهو: الشهيد البوشيخي حفظه الله ورعاه.

ولكي نقف بشيء من التفصيل على مصطلحية فقيدينا رحمه الله، فلنبداً قصة رحلته في مشواره العلمي بخصوص الدراسات المصطلحية.

المرحلة الأولى: صلته الأولى

بالمصطلحية:

البحث في المصطلح عموماً والمصطلح الأصولي خصوصاً، قديم عنده فهو يرجع إلى مرحلة الدراسات الجامعية العليا في سلك تكوين المكونين السنة الأولى [1985م - 1986م]، حيث دشّن مشروعه العلمي العمري ببحث أنجزه تحت إشراف شيخه ومربيه -كما يصرح رحمه الله دائماً- الدكتور الشهيد البوشيخي، وللاشارة فإن الإشراف نفسه عمر معه مدة حياته إلى أن أتاه اليقين.

أما موضوع ذلك البحث فكان: 'الأصول والأصوليون المغاربة: بحث ببلوغرافي' ومنذ ذلك الحين انطبعت في ذهنه الحاسة المصطلحية وزرعت فيه مخايلها حيث كان يعلق رحمه الله على كل مؤلف بالعبارة الواصفة له وهي

فارس من فرسان المصطلح

د. فريدة زمرد

وزان غيرها(2).

ومن أجمل ما كتبه رحمه الله في وصف مقاصد هذا النوع من الدرس - منبها من حجبته قشور المنهج عن النظر في لبه وجوهره- قوله(3): (إن دراسة مصطلحية... مشكلتها أن لها ظاهراً وباطناً، من شغله الأول عن الثاني لم يكن في العلم إلا كالناظر إلى متاع غيره، إذ يبقى حبيس حدود معجمية أو حبيس أشكال تفسيرية لهؤلاء أو أولئك، دون الغوص إلى مقاصدها، وربطها بما أخذها، لمعرفة أنساقها الكلية في فصول العلم، وتعيين مواقعها من تاريخ العلم. فلا يكاد الباحث يخرج من جبة صاحبه، ولا ظل - بعد ذلك - يظهر في الظل).

لقد كانت هذه الكلمات، وغيرها، مما يمكن اعتباره بداية النحت في "فقه الدراسة المصطلحية" الذي يمد الباحثين المصطلحيين بقواعد ومقاصد تمددها بماء الحياة، فتجدد وتورق أغصانها مع ربيع كل بحث، وما أحوج هؤلاء إلى ذلك الفقه أو قل تلك الفلسفة الكامنة وراء الدراسة المصطلحية، حتى لا تزيغ أنظارهم عنها باحثة عن صور جامدة للتقسيمات والتعريفات والتصنيفات... ولا شك أن من

"المصطلح هو العلم" بهذه العبارة الجامعة افتتح الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله مقدمة أطروحته للدكتوراه: (المصطلح الأصولي عند الشاطبي)، وقد يخالها الناظر مبالغته منه؛ لكن العارف بحال المصطلح يعرف أنها ليست مبالغة، ولقد قالها قبل ذلك أستاذه وشيخه في المصطلح(1)، حين نفى أن تكون المصطلحات "مفاتيح العلوم" فحسب، وجعلها -أكثر من ذلك- خلاصة البحث في هذه العلوم (ببدايتها يبدأ الوجود العلني للعلم). ولن يبالغ من أراد أن يضيف إلى كل هذا أن المصطلح هو روح العلم ولحمته وسداه!

تلك العبارة ليست مبالغة إذن، بل هي خلاصة بحث ومعاينة بحث طويل في المصطلح في مجال من أدق مجالات العلوم الإسلامية وأكثرها عمقا، ولقد عاش الأنصاري -رحمه الله- في كنف هذا العلم سنين، وقطع معه أشواط الدراسة والتحصيل الأكاديمي والعلمي بكل مراحلها، متدرجا في مرقاته دون كلل أو ملل، وأتى يمل من ذاق حلاوة البحث في

ليست غاية الدراسة المصطلحية عنده الكشف عن مفهوم المصطلح،

من حيث هو لفظ معجمي، بل هي تصبو إلى تبين الرؤية الكامنة فيه، والفلسفة التي تؤويه،

وإلى معرفة ما يشكله -ضمن بنية العقل المسلم- من "مفتاحية" لفهم الذات وتقويمها، ثم

تجديدها على وزانها لا على وزان غيرها

قصر همته على هذا الحد لم يكن ليشرف بصفة الباحث المصطلحي.

لقد وصف الأنصاري رحمه الله -من وحي تجربته الخاصة الرائدة في دراسة المصطلح الأصولي- حال السالك في دروب هذا النوع من البحث؛ التي ما يقطع صاحبها شوطاً حتى تستحته أشواط، بما يدل على معرفته بهذه المنزلة من منازل الدرس المصطلحي، قال: (...وأما من عبر الأبواب إلى وسط القباب، فإنه تكون له من دراسة المصطلح مكاسب ومواهب، حتى إذا علم ما علم، تراءت له آفاق أخرى، ثم أخرى، إلى آفاق الآفاق، فلم يكن علمه بعد إلا دليلاً على أنه قد جهل من المصطلح أكثر مما علم، فيجد الشوق، ويهب الأئس في رحلته الغربية مع المصطلح، وكفى بهذا نجاحاً في البحث العلمي!

فعبجا لأمر هذا المصطلح كلما درس منه الدارس شيئاً، وظن أنه قد أتى فيه بالنهايات، ووصل إلى مدارك الغايات؛ تبين له أنه لم يبرح حدود الرسوم والأشباح، إلى درك الحقائق والأرواح(4).

ما أصدق عباراتك يا أنصاري وأنت تصف حال الدارس المصطلحي مع المصطلح، لكن ليس أي دارس... إنه الدارس الذي تهاهى مع الدرس حتى صار كأنه هو، الدارس الذي تفرد في حبه للمصطلح، حتى صار من فرسانه....

..... وإني لأرجو الله أن لا تكون آخر الفرسان....

1 - الدكتور الشهيد البوشيخي في مقدمة بحثه عن المصطلحات النقدية والبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ.
2 - من مداخلة له في دورة تدريبية داخلية بمعهد الدراسات المصطلحية بفاس.
3 - نفس المصدر. // 4 - نفسه/

المصطلح؟! لأجل ذلك جاءت شهادة أستاذه وأستاذ جيل الباحثين في المصطلح الدكتور الشهيد البوشيخي حفظه الله صادقة وهي تصف حال هذا الرجل الذي (لم يكد يخلق إلا للعلم وللبحث العلمي).

ولا أرى المقام هنا مقام بسط لجهود الأنصاري رحمه الله في دراسة المصطلح الأصولي، وخاصة عند الشاطبي، وإنما هي وقفة تأمل في "تركة" رجل رحل عنا بالأمس القريب، ولما تستنشق بعد النفوس من هول الصدمة لتستقر الأقلام على صفحة البحث الدقيق في مكونات هذه "التركة" -وعزراً لاستعمال لفظ التركة، وهو مقصود لأنني أعلم أن الرجل لم يكن جماع مال ولا متاع، فتركته هي من جنس الأوراق المسودة بمداد البحث أو تلك المطرزة بوشى الشعر- إنها وقفة تأمل في مسار بحث مصطلحي بدأ مع الدراسة التطبيقية لبعض مصطلحات أصول الفقه، وتطور إلى التنظير والتاصيل للدرس المصطلحي في مجال التراث وأثره في فهم هذا التراث وتقويمه.

لم يكتف الأنصاري بالتأكيد على أهمية الدرس المصطلحي لعلوم التراث القاعدية منها والمنهجية، وقدرته على سبر أغوار هذه العلوم والكشف عن أنساقها وقواعدها، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين نظر في "مقاصد" هذا النوع من الدرس؛ فليست غاية الدراسة المصطلحية عنده الكشف عن مفهوم المصطلح، من حيث هو لفظ معجمي، بل هي تصبو إلى تبين الرؤية الكامنة فيه، والفلسفة التي تؤويه، وإلى معرفة ما يشكله -ضمن بنية العقل المسلم- من "مفتاحية" لفهم الذات وتقويمها، ثم تجديدها على وزانها لا على